نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس العاشر

جاء الإسلام رحمة للعالمين وليخرجهم من عبادة الأوثان، ومن عبوديّة العقل للجسد وغرائزه لرقيّ الجسد إلى الروح وسمائها، فتحقّق في الإسلام السموّ الذي كانت تفتقدهُ البشريّة في عصور الضلال والانحراف والتيه الذي مرّت به، ولم يعرف التاريخ رسالةً أشمل وأعظم من رسالة الإسلام، وهي الرسالة الأبديّة التي أنزلها الله مع كلّ أنبيائه ورسله، فكانوا يدعونَ الناس دوماً إلى خلع ما يعتقدونهُ من هيمنة الحجر على البشر ومن ألوهيّة الصنم والتمر والخشب، إلى فلك التوحيد والإيمان بالخالق الذي لا حدود لقدرته ولا تناهي لعظمته جلّ جلاله.

كما لم يعرف التاريخ رسالةً أعظم من الإسلام، فإنَّ التاريخ لم يعرف فاتحاً ولا قائداً أعظم من رسول الله مُحمّد عليه الصلاة والسلام، فهوَ النبيّ الذي ختمَ الله بهِ الأنبياء، وهوَ الذي أخرجنا الله بهِ من ظُلمات الدنيا إلى نور الدنيا والآخرة، ولكونه النبيّ العظيم والرسول القائد حقّ علينا أن ندرس سيرته وأن نعرف عن حياته وعن شخصيّته وعن أبرز ملامح الفترة الزمنيّة التي عاشها، ولا يكون هذا إلّا بدراسة السيرة النبويّة ومعرفة الحياة العامّة والخاصّة للنبيّ الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، ونتناول اليوم بعض الأحداث التي وقعت في عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

عناصر المحاضرة:

1. المقاطعة العامة.
2. وفاة أبي طالب.
3. وفاة خديجة رضي الله عنها.
4. فضائل خديجة رضي الله عنها.
5. أثر وفاة أبي طالب على دعوة نبينا ﷺ.

المقاطعة العامة:

لما رأت قريش أن أمر الإسلام أخذ ينتشر ويعلو، وأن عدد المسلمين أخذ يزداد ويكثر، وأن محاولاتها لصد النبي ﷺ عن دعوته بات بالفشل، ولم تمنع من انتشار الإسلام، وأن مساوماتها لأبي طالب وابن أخيه محمد ﷺ قد قوبلت بالرفض، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه من المسلمين في الحبشة، و دعوة النبي ﷺ في عامها السابع تتعاظم يوماً بعد يوم، ويعلو شأنُها، وانتقل المسلمون من حياة الكتمان والاستخفاء، إلى مرحلة الجهر بالتوحيد والاستعلاء، فطاش من قريش صوابها،

واضطربت حبالها، واشتعلت أفران الحمم في صدورها، وبالأخص بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- اللَّذَين قلبا موازين القوة، وأصبح المشركون بعدها يضعون للفئة المستضعفة حسابات أخرى.

أجمعت قريش أمرَها على قتل النبي ﷺ فبلغ ذلك أبا طالب عم النبي - صلى الله عليه وسلم - فجمع أبو طالب بني هاشم مؤمنهم وكافرهم، وأخبرهم بمكيدة قريش، فتحركت فيهم حميَّةُ الدم والنسب، فقرَّروا أن ينحازوا بالنبي ﷺ في شِعب بمكة يقال له: شِعب أبي طالب، وانحاز معهم حميَّةً أيضاً بنو المطلب بن عبد مناف.

رأت قريش هذه الحمية والمنعة، فعرفت أن دون ذلك دماء وأشلاء، ورؤوس ونفوس.

فقررت قريش معاقبة هذه الفئة المسلمة ومن تعاطف معها، فاجتمع رؤساؤهم في خيف بني كنانة، (ويسمى اليوم بالمعابدة)، اجتمعوا على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب اقتصاديًا واجتماعيًا، وكتبوا في ذلك كتابًا:(ألا يزوجوا إليهم، ولا يتزوجوا منهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم شيئًا، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم) حتى يسلّموا إليهم رسول الله ﷺ.

وعُلقت هذه الصحيفة الظالمة في جوف الكعبة تأكيدًا على التزام ما فيها.

وكان الذي كتب هذه الصحيفة منصور بن عكرمة العبدري، فدعا عليه النبي ﷺ فشلت أصابعه.

وكان ابتداء حصر بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب، في أول يوم من المحرم سنة سبع من البعثة، واستمرت المقاطعة ثلاث سنين، وفي فترة الحصار وُلد ابن عباس رضي الله عنهما، واشتد الحصار عليهم، ومُنع عنهم الطعام، حتى بلغهم الجهد، وسُمع أصوات صبيانهم بالبكاء من الجوع من وراء الشعب.

ذبلت الأجساد، وجفَّت الأكباد، قرقرت البطون، وظمئت الأجواف، أطفال يصرخون، وشيوخ يئنون، مرضى يتوجَّعون، ورجال حائرون، إنه مشهد من مشاهد الحصار، وأثر من آثاره.

قال عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا...» [مسلم: كتاب الزهد والرقائق].

ويصف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه هذا البلاء قائلًا: «كُنَّا قَوْمًا يُصِيبُنَا ظَلَفُ الْعَيْشِ[الشدة والغلظ في المعيشة]بِمَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَشِدَّتُهُ، فَلَمَّا أَصَابَنَا الْبَلَاءُ اعْتَرَفْنَا لِذَلِكَ وَمَرَنَّا عَلَيْهِ وَصَبَرْنَا لَهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ خَرَجْتُ مِنَ اللَّيْلِ أَبُولُ، وَإِذَا أَنَا أَسْمَعُ بِقَعْقَعَةِ شَيْءٍ تَحْتَ بَوْلِي، فَإِذَا قِطْعَةُ جِلْدِ بَعِيرٍ، فَأَخَذْتُهَا فَغَسَلْتُهَا ثُمَّ أَحْرَقْتُهَا فَوَضَعْتُهَا بَيْنَ حَجَرَيْنِ، ثُمَّ اسْتَفَفْتُهَا[تناوله يابسًا] وَشَرِبْتُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَقَوِيتُ عَلَيْهَا ثَلَاثًا»[الأصبهاني: حلية الأولياء 93/1].

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم، أمره أن ينام في فراشه، حتى يراه من أراد به مكرا، فإذا نام الناس أخذ أحد بنيه أو إخوته أوبني عمه فأضجعه على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها.

واشتد الأمر، وقطعت عليهم الأسواق، فكانت قريش لا تترك طعاماً يصل إلى مكة إلا بادروا إلى شرائه، حتى يقتل الجوع من في الشعب، فهلك من هلك من المحاصَرين، والرسول ﷺ لم يتوقف عن الدعوة خارج الشعب.

قال السهيلي: (وَكَانُوا إِذَا قَدِمَتْ الْعِيرُ مَكَّةَ يَأْتِي أَحَدُهُمْ السُّوقَ لِيَشْتَرِيَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ لِعِيَالِهِ فَيَقُومُ أَبُو لَهَبٍ عَدُوُّ اللهِ فَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ غَالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ حَتَّى لَا يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئًا، فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لِي وَوَفَاءُ ذِمَّتِي، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا خَسَارَ عَلَيْكُمْ، فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ فِي السِّلْعَةِ قِيمَتَهَا أَضْعَافًا، حَتَّى يَرْجِعَ إلَى أَطْفَالِهِ وَهُمْ يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الْجَوْعِ وَلَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ يُطْعِمُهُمْ بِهِ، وَيَغْدُو التُّجَّارُ عَلَى أَبِي لَهَبٍ، فَيُرْبِحَهُمْ فِيمَا اشْتَرَوْا مِنَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ؛ حَتَّى جَهِدَ الْمُؤْمِنُونَ وَمَنْ مَعَهُمْ جَوْعًا وَعُرْيًا).

انظر: السهيلي: الروض الأنف 217/3.

وآذت قريش كل من اطلعوا على أنه يمد المحاصَرين بالمؤن والغذاء خفية، فكان أحدُ المشركين -وهو هشام بن عمرو العامري- يحمل البعير بالطعام والثياب، ويأخذ بخطام البعير حتى يقف على رأس الشِّعب، ثم يخلع خطام البعير ويطلقه في الشعب، وكان حكيم بن حزام يرسل الطعام لعمته خديجة بنت خويلد سراً، فرآه أبو جهل يوماً، فجعل يمانعه عن إيصال الطعام، ويهدد بفضحه والتشهير به، فجاء أبو البختري بن هشام فوقف مع حكيم بن حزام، وحصلت مشادة بينه وبين أبي

جهل انتهت برض رأس أبي جهل بحجر حتى أدماه، وانطلق حكيم إلى عمته بالطعام، الشاهد من هذه المواقف بيان أن المعونات الغذائية كانت تدخل إلى الشِّعب سراً، وكانت قليلة جداً...

وهكذا قلَّ الطعامُ، ونقص الزادُ، وجهد المسلمون وأقاربهم وحلفاؤهم من هذا الحصار، والتضييق الاقتصادي.

أما أبو طالب عمّ النبي ﷺ فقد وقف موقفًا عظيمًا شريفًا في حماية النبي ﷺ كان يبيت الليل مستيقظًا، يحمل سلاحه، ويطوف في الشعب مع جماعة من بني هاشم، ثم ينامون النهار، وكان أبو طالب يأمر حمزة والعباس أن يرابطا على مدخل الشِّعب ليرصدا تحركات المشركين، خوفًا من غدر أو غيلة تستهدف حياة ابن أخيه، بل بلغ من خوفه وحرصه على حياة النبي ﷺ أنه كان يطلب من النبي ﷺ أن ينام على فراشه، ويأمر أحد بنيه أن ينام مكان النبي ﷺ.

مضت الأيام والأشهر وحال المسلمين المحاصرين يزداد من سوء إلى أسوأ، وعم الجوعُ بين أهل الشِّعب، وندر الكلام، وقلت الحركة، وكان يُسمع من وراء الشِّعب أصواتُ النساء والصبيان يتضاغون من الجوع، وبلغ بالناس من شدة الجوع شيء لا يكاد يصدق حتى أكلوا ما يمكن أكله.

ومضت ثلاثة أعوام من عمر ذلك الحصار الآثم، والمسلمون يستعينون على مدافعة ذلك القدر الإلهي بالصبر والمصابرة، وانتظار الفرج من الله - تعالى -، ونزل الوحي من الله - تعالى -على قلب سيد المرسلين ليخبره بأن تلك الصحيفة قد سلّط الله عليها دويبة ضعيفة فأكلت ورقتها،وأكلت جميع ما فيها من جور وظلم وقطيعة وبهتان، إلا ما كان فيها من ذكر الله - عز وجل -، أخبر المصطفى ﷺ عمّه أبا طالب بخبر السماء، فانطلق أبو طالب إلى قريش ليخبرهم بأمر الصحيفة وأن الأرضة قد أكلتها إلا اسم الله، ثم ساومهم أبو طالب على هذه المعلومة الغائبة عنهم فقال: إن كان كلامُ ابن أخي حقاً فانتهوا عن قطيعتنا، وإن يك كاذبًا دفعته إليكم، فقالوا: قد أنصفتنا، ومشى الجميع إلى جوف الكعبة، ثم نظروا فإذا هي كما قال الرسول ﷺ، فزادهم ذلك شراً، وقالوا هذا سحر ابن أخيك، فقال أبو طالب: يا معشر قريش، علام نُحبس ونُحصر، وقد بان الأمر، وتبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة؟ ثم دخل أبو طالب وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة، ودعا، فقال: اللهم

انصرنا على من ظلمنا، وقطع أرحامنا، واستحل ما يَحرُم عليه منا، ثم انصرفوا إلى الشعب،وأبى العنادُ والاستكبار إلا أن يركب رؤوسَ رؤساء المشركين، فأبوا إلا المضي في المقاطعة والمحاصرة،بعد هذا الموقف وطول المقام على بني هاشم في الشِّعب، تحركت مروءةُ رجال من قريش، فاجتمع نفرٌ منهم ليلا، وتلاوموا على هذه الصحيفة الظالمة، والرحم المقطَّعة، وتحركت فيهم وشائجُ النخوة والشهامة، فقرروا نقضَ الصحيفة وإنهاء حياة الضر التي قاساها بنو هاشم طوال أعوام ثلاثة، فلم يصبحوا من ليلتهم تلك إلا وقد يمموا شطر تلك الصحيفة ومزقوها، ليعلنوا بعدها إنهاءَ أزمة الحصار، وإخراج بني هاشم وبني عبد المطلب من هذا الشعب، وكان في مقدمة هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث، والمطعم بن عدي، وزهير بن أبي أمية، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري بن هشام، وكانت تربط هؤلاء ببني هاشم وبني المطلب صلات رحم ،ثم مشى إلى أولئك النفر من قريش الذين أجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة، فلبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم، وبني المطلب، فأمروهم بالخروج من الشعب إلى مساكنهم ففعلوا،وكان خروجهم من الشعب في المحرم أول السنة العاشرة من البعثة، فسبحان العزيز الرحيم الذي يسمع ويرى ما يفعل الكفار بنبيه ﷺ وأصحابه، ويحلم عليهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة،فأي قسوة، وأي جور، وأي ظلم، لمن جاء بدين الرحمة والشفقة على المؤمنين والكافرين والمحاربين: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (128) [التوبة/١٢٨].

وما أعظم ما لاقاه الرسول ﷺ وأصحابه ومن ناصره من أذى واضطهاد، فصبروا حتى نصرهم الله، وأظهر دينه:(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33) [التوبة/٣٣].

لقد انتهت المقاطعة على نحو فرَّق كلمة قريش، وأوقع الصدام والنزاع بينهم، وأظهر صبر الرسول ﷺ وأصحابه، وكشف عن قوتهم وثباتهم على الحق أقوى من قبل، وأظهر لهذا الدين من ينصره ممن لم يؤمن به، من أهل المروءة والشهامة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الله لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ» متفق عليه

✉ما أصاب المسلمين من الجهد والبلاء في الشِّعب لم يكن شراً محضاً، بل كان يحمل في طياته من الخيرية للدعوة المحمدية، ما لا يدركه البشرُ بعقولهم، فمع ما في هذا البلاء من رفعة الدرجات وتكفير السيئات لأهل الإيمان، إلا أن هذه المقاطعة والتجويع القهري، كان حدثاً إعلاميًا تسامع له العربُ، وتساءلوا عن سبب هذه المحاصرة الاقتصادية، التي أخرجت قريشًا عن رشدها ووقارها، فجعل العربُ في غير مكة يتلمسون أخبار هذا النبي، ويتلهّفون لمعرفة حقيقة دعوته، فكان ذلك الحصارُ سببًا في أن تخرج الدعوة المحمدية من إقليمية مكة إلى عالمية الجزيرة العربية آنذاك.

✉لقد صورت هذه المقاطعة قمة الأذى والظلم الذي لقيه النبي ﷺ وأصحابه طوال سنوات ثلاث، ومع ذلك كان فيها من الخير والدروس الكثير ،قال الله تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ }(البقرة: من الآية216)، فقد كانت هذه المقاطعة سببا في خدمة الإسلام ودعوته، فقد انتشر الخبر بين قبائل العرب من خلال موسم الحج ـ الذي كان إعلاما ـ بما تفعله قريش من الأذى، وتحمل النبي ﷺ وأصحابه ذلك، وثباتهم على مبادئهم، مما أثار سخط العرب على كفار مكة وتعاطفهم مع النبي ﷺ وأصحابه، فما أن انتهى الحصار حتى أقبل الناس على الإسلام، وذاع أمره، وهكذا ارتد سلاح الحصار الظالم على أصحابه، وكان عاملا قويا من عوامل انتشار الإسلام ودعوته، عكس ما كان يريد ويأمل زعماء الكفر، قال تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }(لأنفال: من الآية30).

✉الصبر والثبات درس هام من دروس هذا الحصار وهذه المقاطعة، فقد تجرع الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ مرارة هذا الحصار الشديد، فكانوا يأكلون ورق الشجر وما يجدونه، ومع ذلك صبروا وثبتوا، فكانت تربية النبي ﷺ لهم على الصبر عاملاً مهماً من عوامل الصمود والتحدي أمام الباطل وأهله، فالنصر مع الصبر، والبلاء سُنَّة ماضية، وأهل الإيمان لا بد أن يتعرضوا للفتن تمحيصاً وإعداداً، قال الله ـ تعالى ـ:{أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ }(العنكبوت: 2) ، وقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

الصَّابِرِينَ } (آل عمران:142)، ومن ثم تجلت التضحيات والمواقف في الثبات ـ على الدين والدعوة والقيم ـ عند الصحابة الكرام طوال حياتهم.

ومن دروس هذه المقاطعة رد الجميل لأصحابه، ومكافأة المحسنين على إحسانهم، وهذا خُلُق حث عليه الرسول ﷺ فقال:(مَنْ أَتَى إليكُمْ معروفًا فكافِئُوهُ) (صحيح الجامع)، فبعد انتهاء هذه المقاطعة، كان النبي ﷺ مقدراً لأصحاب المواقف الإيجابية مع المسلمين، وكافأهم عليها.

فأما عمه أبو طالب فقد قال العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ للنبي ﷺ صلى الله عليه وسلم: ما أغنيتَ عن عمك، فوالله كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال ﷺ: (هو في ضَحْضَاحٍ مِن نَارٍ، ولَوْلَا أنَا لَكانَ في الدَّرَكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ) (البخاري)، وذكر ابن هشام في سيرته: أن هشام بن عمرو أسلم فأعطاه النبي ﷺ من غنائم معركة حنين دون المائة من الإبل، وأما أبو البختري فقد كان في صف المشركين يوم بدر فنهى النبي ﷺ عن قتله، وأما المطعم بن عدي فقد قال النبي ﷺ في أسارى بدر من المشركين: (لو كان المِطْعَمُ بن عَدِيٍّ حياً، ثم كلَّمني في هؤلاء النَّتْن لتركتهم له)(البخاري)، ولفظ أبي داود (لأطلقتهم له) .

وخرج رسول الله ﷺ من الشعب يدعو إلى الله تعالى، وظل أبو طالب يحوطه ويمنعه إلى أن لاحقه المرض واشتد به، فحاول المشركون أن يفاوضوا النبي ﷺ بين يدي أبي طالب، لئلا يُعابوا في الإساءة إليه بعد وفاة عمه.

فلما اشتكى أبو طالب، وثقل به مرضه، قالت قريش بعضهم لبعض، إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منا، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا.

فمشى إليه أشراف قريش في خمسة وعشرين رجلاً، منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، وغيرهم. فقالوا: يا أبا طالب إنك كبيرنا وسيدنا، وأنت منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه، فبعث إليه أبو طالب، فجاء النبي ﷺ، فقال له أبو طالب؛ يا ابن أخي،

هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم، ويدعوك وإلهك، فاقبل منهم فقد أنصفوك، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذه، هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم». فقال أبو جهل: نعم وأبيك! وعشر كلمات فما هي؟ فقال ﷺ: «تقولوا: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه»، فقال أبو طالب: يا ابن أخي! والله ما رأيتك سألتهم شططاً،أما زعماء قريش فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب، ثم قالوا: إنه والله لن يعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، فأنزل الله تعالى فيهم: (وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) [ص/١-5].

وفاة أبي طالب.

✉ونتكلم الآن عن وفاة أبي طالب، ونبين أن تسمية هذا العام بعام الحزن لوفاة عمه وزوجته خديجة، لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أو أحدا من أصحابه، بل ولا من التابعين، ومتقدمي الأئمة: أنه سمى هذا العام بعام الحزن؛ ولم يُرو ذلك مسندا من وجه، وغاية ما في الأمر أنها تسمية من العلماء، وقال الدكتور محمد بن عبد الله العوشن، حفظه الله: ولم يذكر هذا اللفظ -فيما أعلم- أحد ممّن كتب في السيرة كابن القيم والذهبي وابن كثير، ولا غيرهم من شرّاح الأحاديث كالنووي وابن حجر -رحمهم الله- ".

✉اشتد المرض على أبي طالب، ثم توفي بعد خروجه من الشعب، في آخر السنة العاشرة من البعثة، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، وله من العمر «87» سنة.

⇦وكان أبو طالب يذب عن النبي ﷺ، ويرد عنه كل من يؤذيه، أكثر من أربعين عاماً، وهو مقيم مع ذلك على دين قومه، ومات على ذلك.

عن سَعِيد بْن المُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْل وَعَبْدَ الله بْنَ أَبي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ

بِهَا عِنْدَ الله» فَقَالَ أَبُوجَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ المَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَا والله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ الله عزوجل:(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)(113)التوبة

وَأَنْزَلَ الله تَعَالى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ :(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)» متفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعَمِّهِ: «قُلْ لا إِلَهَ إِلا الله، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ القيامة". فقال: لَوْلا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ الله عزوجل {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}» أخرجه مسلم.

✉وكان أبو طالب يحب رسول الله ﷺ حباً شديداً، وكان ﷺ يحب له أن يؤمن، ولكن أبا طالب كان عنده العصبية لمحمد لا لدين محمد ﷺ، ومات أبو طالب كافراً، فواراه بالتراب ابنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

✉ومصير أبي طالب إلى النار، لكنه أهون أهل النار عذاباً، لشفاعة النبي ﷺ له، فعن العَبَّاس بْن عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه أنه قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ، قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِن النَّارِ» متفق عليه.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ» متفق عليه.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ» أخرجه مسلم.

وفاة خديجة رضي الله عنها:

✉خديجة بنت خويلد رضي الله عنها زوجة رسول الله ﷺ، وهي من نعم الله الكبرى عليه ﷺ، فقد آمنت به، وآزرته في أحرج الأوقات، وأعانته على إبلاغ رسالته، وواسته بنفسها ومالها، وشاركته أعباء الجهاد المُرّ الطويل.

✉توفيت رضي الله عنها بعد وفاة أبي طالب بأيام، فاجتمعت على النبي ﷺ مصيبتان: مصيبة من كان يحميه في الخارج وهو عمه، ومن كان يؤنسه في داخل بيته وهي زوجته، فلزم بيته، وأقل الخروج، وحزن لفراقها.

✉وكانت وفاتها رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، وبعد البعثة بعشر سنين، وتوفيت رضي الله عنها قبل أن تفرض الصلاة في الإسراء والمعراج.

✉ودفنت رضي الله عنها بالحجون، في مقابر أهل مكة، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن صلاة الجنازة شرعت.

✉وكانت مدة إقامتها مع الرسول ﷺ خمساً وعشرين سنة، وتوفيت ولها من العمر خمس وستون سنة، والرسول ﷺ حين وفاتها يبلغ من العمر خمسين سنة.

📧عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ قَبْلَ مَـخْرَجِ النَّبِيِّ ﷺ إلى المَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، فَلَبِثَ سَنَتَيْنِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، وَنَكَحَ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، ثُمَّ بَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ. متفق عليه.

📜فضائل خديجة رضي الله عنها:

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْكَ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ. متفق عليه.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» متفق عليه.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ

خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَـمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لاي مِنْهَا وَلَدٌ» متفق عليه.

وعَنْ أنس رضي الله عنه أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُـحَمَّدٍ» أخرجه أحمد والترمذي.

والقدر المشترك بين (آسية، ومريم، وخديجة)، أن كلاً منهن كفلت نبياً مرسلاً، وآمنت به، وصدقته، وآزرته، وأحسنت إليه.

ومن فضائل خديجة أن النبي ﷺ لم يتزوج عليها حتى ماتت، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت. أخرجه مسلم.

- وهي أول من أسلم من النساء من هذه الأمة، وأول داعية إلى الله من نساء هذه الأمة، وأول من أنفق ماله في سبيل الله من هذه الأمة، وأول من صلى خلف النبي ﷺ من هذه الأمة، وأول من بعث الله له السلام مع جبريل من هذه الأمة.
- ومن فضائلها رضي الله عنها أنها لم تسوءه ﷺ قط، ولم تغاضبه، ولم ينله منها بلاء، ولا عتب، ولا هجر، وأن أولاده ﷺ كلهم منها إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية.
- ولما توفيت خديجة رضي الله عنها تزوج ﷺ عائشة، لكن لم يدخل بها إلا بعد الهجرة إلى المدينة، لما بلغ عمرها تسع سنين، ثم عقد ﷺ على سودة بنت زمعة في مكة، ودخل بها قبل دخوله بعائشة، وكانت سيدة جليلة نبيلة ضخمة، وانفردت بالنبي ﷺ نحواً من ثلاث سنين.
- ولما كبرت سودة رضي الله عنها، خشيت أن يفارقها رسول الله ﷺ فوهبت يومها لعائشة، وبقيت معه ﷺ حتى توفيت بالمدينة آخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أثر وفاة أبي طالب على دعوة نبينا ﷺ:

شدة أذى قريش للرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب: -لما خرج رسول الله ﷺ من الشعب في العام العاشر من البعثة، توفي بعد ذلك أبو طالب، ثم توفيت خديجة رضي الله عنها في العام نفسه، فزادت عليه المصائب من قريش، واجترأ عليه كفار قريش بالأذى والنكال بالقول والفعل، بعد أن كان مقتصراً على الاستهزاء قبيل وفاة عمه أبي طالب.

فقد طرح الكفار سلا الجزور بين كتفيه ﷺ وهويصلي، وعزم أبوجهل أن يطأ عنقه ﷺ وهو يُصلي، فحِيل بينه وبين ذلك.

عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: سألت ابْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ المُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُوبَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ الله" أخرجه البخاري.

وعن ابْن مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ البَيْتِ وَأَبُوجَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشْقَى القَوْمِ فَجَاءَ بِهِ ، فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ ، قَالَ : فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ،وَرَسُولُ الله ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ،ثُمَّ قَالَ : «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ ، قَالَ : وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ البَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ ، ثُمَّ سَمَّى «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» وَعَدَّ السَّابِعَ ، فَلَمْ يَحْفَظْ ، قَالَ : فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ الله ﷺ صَرْعَى فِي القَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ. متفق عليه.

المعية الإلهية لحماية نبينا ﷺ:

ومما لقيه ﷺ من المشركين بعد وفاة أبي طالب ما حصل من أبي جهل لعنه الله

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُوجَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُـحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ .

قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ ؟فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَـخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:«لَوْدَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا». قَالَ : فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ:{ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)}. أخرجه مسلم

وعن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَقَدْ أُخِفْتُ فِي الله وَمَا يُـخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي الله وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ وَمَا لي وَلِبِلالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبِطُ بِلالٍ» أخرجه أحمد والترمذي.

وأوغلت قريش في كفرها وصدها عن سبيل الله، وعنادها الضاري، فلم يثر هذا كله غضبه ﷺ، ولكنه أثار شفقته ورحمته، وكان جوابه ﷺ اعتذاره لقومه بقوله: «اللَّهُمَّ اهدِ قَوْمِي فَإِنهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أخرجه ابن حبان.

وإذا أراد الله إظهار دينه، فلن تستطيع قريش ولا غيرها أن تطفئ نور الله: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)} [التوبة/٣٢].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له، خَرَجَ أبو بَكْرٍ مُهاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ، حتَّى إذا بَلَغَ بَرْكَ الغِمادِ لَقِيَهُ ابنُ الدَّغِنَةِ وهو سَيِّدُ القارَةِ، فقالَ: أيْنَ تُرِيدُ يا أبا بَكْرٍ؟ فقالَ أبو بَكْرٍ: أخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أنْ أسِيحَ في الأرْضِ وأعْبُدَ رَبِّي، قالَ ابنُ الدَّغِنَةِ: فإنَّ مِثْلَكَ يا أبا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ، إنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ

وتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ وتَقْرِي الضَّيْفَ وتُعِينُ علَى نَوائِبِ الحَقِّ، فأنا لكَ جارٌ ارْجِعْ واعْبُدْ رَبَّكَ ببَلَدِكَ، فَرَجَعَ وارْتَحَلَ معهُ ابنُ الدَّغِنَةِ، فَطافَ ابنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً في أشْرافِ قُرَيْشٍ، فقالَ لهمْ: إنَّ أبا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ ولا يُخْرَجُ، أتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ المَعْدُومَ ويَصِلُ الرَّحِمَ، ويَحْمِلُ الكَلَّ ويَقْرِي الضَّيْفَ، ويُعِينُ علَى نَوائِبِ الحَقِّ، فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بجِوارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وقالوا: لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أبا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ في دارِهِ، فَلْيُصَلِّ فيها ولْيَقْرَأْ ما شاءَ، ولا يُؤْذِينا بذلكَ ولا يَسْتَعْلِنْ به، فإنَّا نَخْشَى أنْ يَفْتِنَ نِساءَنا وأَبْناءَنا، فقالَ ذلكَ ابنُ الدَّغِنَةِ لأبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أبو بَكْرٍ بذلكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ في دارِهِ، ولا يَسْتَعْلِنُ بصَلاتِهِ ولا يَقْرَأُ في غيرِ دارِهِ، ثُمَّ بَدا لأبِي بَكْرٍ، فابْتَنَى مَسْجِدًا بفِناءِ دارِهِ، وكانَ يُصَلِّي فِيهِ، ويَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَنْقَذِفُ عليه نِساءُ المُشْرِكِينَ وأَبْناؤُهُمْ، وهُمْ يَعْجَبُونَ منه ويَنْظُرُونَ إلَيْهِ، وكانَ أبو بَكْرٍ رَجُلًا بَكّاءً، لا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إذا قَرَأَ القُرْآنَ، وأَفْزَعَ ذلكَ أشْرافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فأرْسَلُوا إلى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عليهم، فقالوا: إنَّا كُنَّا أجَرْنا أبا بَكْرٍ بجِوارِكَ، علَى أنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دارِهِ، فقَدْ جاوَزَ ذلكَ، فابْتَنَى مَسْجِدًا بفِناءِ دارِهِ، فأعْلَنَ بالصَّلاةِ والقِراءَةِ فِيهِ، وإنَّا قدْ خَشِينا أنْ يَفْتِنَ نِساءَنا وأَبْناءَنا، فانْهَهُ، فإنْ أحَبَّ أنْ يَقْتَصِرَ علَى أنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دارِهِ فَعَلَ، وإنْ أبَى إلَّا أنْ يُعْلِنَ بذلكَ، فَسَلْهُ أنْ يَرُدَّ إلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فإنَّا قدْ كَرِهْنا أنْ نُخْفِرَكَ، ولَسْنا مُقِرِّينَ لأبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلانَ، قالَتْ عائِشَةُ: فأتَى ابنُ الدَّغِنَةِ إلى أبِي بَكْرٍ فقالَ: قدْ عَلِمْتَ الذي عاقَدْتُ لكَ عليه، فَإمَّا أنْ تَقْتَصِرَ علَى ذلكَ، وإمَّا أنْ تَرْجِعَ إلَيَّ ذِمَّتِي، فإنِّي لا أُحِبُّ أنْ تَسْمع العَرَبُ أنِّي أُخْفِرْتُ في رَجُلٍ عَقَدْتُ له، فقالَ أبو بَكْرٍ: فإنِّي أرُدُّ إلَيْكَ جِوارَكَ، وأَرْضَى بجِوارِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ والنبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَئِذٍ بمَكَّةَ.

المراجع:

❶السيرة النبوية بين المعرفة والواجب في ضوء القرآن والسنة.

❷إبراهيم بن صالح العجلان (طريق الإسلام).

❸أهمية دراسة السيرة النبوية مراد الشوابكة.